اليهودي في الرواية الفلسطينية

ملاحظات أولى

د. عادل الأسطة

" اليهودي في الرواية الفلسطينية " عنوان دراسة صدرت في الجزائر عام 2002 عن منشورات رابطة إبداع الثقافية. والدراسة، كما عرفت، رسالة دكتوراة أنجزها الفلسطيني المقيم هناك حسين أبو النجا. وتقع الدراسة في 223 صفحة، وقد تشكلت من مقدمة، وتمهيد عرض فيه خلفيات تكون الصورة، وبابين؛ الأول ناقش فيه صورة اليهودية في الرواية الفلسطينية، والثاني صورة اليهودي. والروايات التي ناقشها هي:

زمن اللعنة لأحمد شاهين، والمسار والنقيض لأفنان القاسم، والأصدقاء لحسن جمال الحسيني، والوارث لخليل بيدس، وأرض العسل لرشاد أبو شاور، والصورة الأخيرة في الألبوم لسميح القاسم، وعائد إلى حيفا لغسان كنفاني، ونبتة في البيداء ووداع مع الأصيل لفتحية محمود الباتع، والهجرة إلى الجحيم لمحمود شاهين، وحبات البرتقال لناصر الدين النشاشيبي، وثلاثية فلسطين لنبيل خوري.

وقد خلص الدارس إلى أن صورة اليهودية بدت في الصفات التالية: الغانية، المتعايشة، العاجزة، المتخلية. فيما تمثلت صورة اليهودي في الصفات التالية: الطماع، الوجودي، الصهيوني، المرتد.

وقد كتب الدارس في المقدمة أنه يخوض في موضوع لم يُخض فيه من قبل:

" إذا كان يمكن للباحث في الدراسات التي تناولت الرواية الفلسطينية أن يتلمس ظواهر عديدة، فإن أهم هذه الظواهر على الإطلاق، من وجهة نظري: غياب البحث في اليهودي ... "(ص3).

وقد أشار إلى أنه راسل العديد من الباحثين والكتاب ولم يتعاون معه سوى اثنين هما الباحث حسام الخطيب والكاتبة فتحية محمود الباتع، ولعله بذلك يبرر لنفسه ما توصل إليه من أن الموضوع ما زال بكراً ولم يُخض فيه، علماً بأن هناك رسالتي دكتوراة في الموضوع نفسه لي وللباحث السوري حسان سلامة؛ أنجزت الأولى بالألمانية ونشرتها بالعربية عام 1992، وأنجز سلامة الثانية في العام 1994 بالإسبانية، ولا أدري إن كان نشرها بالعربية. وإذا كانت الأولى تبرز صورة اليهودي في الأدب الفلسطيني بعامة –أي في الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية– فإن الثانية اقتصرت على فن الرواية، ونظراً لأنني لم أطلع على دراسة سلامة، فلا أدري ما هي الروايات التي ناقشها، وما هو المنهج الذي سار عليه. وما هي النتائج التي خلص

إليها، وهل ثمة تشابه بين دراسته ودراسة حسين أبو النجا. غير أنني أستطيع القول: إن هناك بَوْناً شاسعاً بين دراستي ودراسة أبو النجا: في المنهج، وفي تناول النصوص، وفي النتائج التي خلص إليها كل واحد منا، ولعل الدكتور سلامة، أو الدكتور محمد الجعيدي (مدريد) الذي أشرف على رسالة سلامة يبديان رأيهما في دراسة المؤلف قيد المعالجة.

ولا يعرض الدارس صورة اليهود في الروايات اعتماداً على المنهج التاريخي، ليلاحظ كيف بدت هذه الصورة وكيف تطورت؟ –وهذا ما فعلته في دراستي–، ولا يناقشها أيضاً من منطلق ماركسي يربط بين الموقع والموقف، وبين المؤلف ونصه –إلا ما ندر–، وهذا ما فعلته أيضاً في دراستي. وهو أيضا لا يكتفي بعرض الصورة والبحث عن أسباب ظهورها على هذه الشاكلة، إنه يلعب مع اللاعبين، ويبرز من خلال ذلك رأيه في اليهود، وهكذا لا نقرأ عن صورة اليهودي في الرواية الفلسطينية وحسب، وإنما نقرأ، أيضاً عن تصور المؤلف لهم، وهذا ما يبدو من خلال مناقشة الشخصيات الروائية والروايات وتبيان موقف منها.

ونلحظ اعتماداً على ما سبق عدم التفات المؤلف إلى الزمن الروائي، وزمن نشر الرواية، وما كانت عليه الأوضاع، بل إنه وهو يدرس نصوصاً لكتاب الداخل مثل سميح القاسم، وكتاب الخارج مثل أفنان القاسم، لا يمهد إلى اختلاف الموقعين وتشابه الرؤية الفكرية لكل منهما، ليبرز لنا سبب اختلاف الصورة. إنه يأتي على ذلك في الخاتمة (ص205) وكان الأجدر أن يشير إلى هذا في البداية.

وكان الكاتب قد تتبع في دراسته، وهو يدرس الشخصية، ما ورد عنها من ناحية جسمانية، ومن ناحية نفسانية، ومن ناحية اجتماعية. وقد سلك هذا المسلك في دراسته كلها بانتظام. وأحياناً كان يلجأ إلى منهج المرايا، فيبرز ما يورده السارد عن الشخصية، وما تورده الشخصيات الأخرى فيها، عدا إبرازه ما تقوله الشخصية وما تبدو عليه. ولكنه، للأسف، لم يبرز لنا صورة الذات العربية، ولو فعل ذلك لخلص إلى نتائج أفضل. حقاً إن العنوان هو " اليهودي في الرواية الفلسطينية "، ولكن هذا العنوان يفترض أيضاً أن يكتب الكاتب عن الفلسطيني الذي أبرز تصوره لليهودي، فالرواية الفلسطينية كتبها فلسطيني، وحتى أقتنع بالصورة التي يرسمها الفلسطيني لليهودي، لا بد من أن أعرف صورة الفلسطيني هذا.

وربما يجدر الالتفات إلى ما ورد في التمهيد الذي أتى فيه على تشكل صورة اليهودي. وعلى الرغم مما كتبه المؤلف، وعلى الرغم من إشارته إلى مصادر مهمة في هذا الجانب، مثل العهد القديم والقرآن الكريم والتجربة الحياتية المعيشة للكاتب، إلا أنه أغفل ذكر مصادر مهمة جداً، وهي قراءات الأدباء لنصوص الأدب الصهيوني أو ما كتب عنها.

وإذا كان لم يلتفت، مثلاً، إلى أن " عائد إلى حيفا "لغسان كنفاني قد أنجزت بعد أن قرأ مؤلفها الأدب الصهيوني، فإن أفنان القاسم في " النقيض " يعلن بوضوح أن كتاب كنفاني " في

الأدب الصهيوني " شكل مصدراً أساسياً من مصادر تشكل صورة اليهودي في " النقيض "، ويمكن قول الشيء ذاته عن رواية محمود شاهين " الهجرة إلى الجحيم ". لقد أفصح هذا أنه أنجز روايته بعد أن قرأ مخطوطاً لرواية كاتب يهودي هاجر إلى إسرائيل، ثم تركها وكتب روايته بناءً على تجربته.

وإذا كان لي ألا أجيب عن السؤال: ما الذي أضافه الكاتب في دراسته؟ لأنني، كما ذكرت، لم أطلع على دراسة حسان سلامة، فإنني أقول: إنه ناقش روايات ناقشتها في دراستي، ولكنه أيضاً كتب عن روايات أخرى لم آت عليها إتياناً مفصلاً. ولكن، على الرغم من اجتهادات الكاتب، تبقى هناك أحكام كثيرة أصدرها، فيها وجهات نظر. من ذلك، مثلاً، ما يرد في ص125، حيث يناقش رواية أفنان القاسم " المسار "، ويتوصل إلى أن شخصية اليهودي الذي يشعر أنه متفوق " تطرح نفسها لأول مرة ". والمسار صدرت في العام 1980، وقد برزت شخصية اليهودي المتفوق عنصرياً، من قبل، في رواية غسان كنفاني " عائد إلى حيفا "(1996).

ملاحظات شكلية ولغوية:

يمكن القول: كان الله في عون قارئ هذا الكتاب. فعدا الأخطاء المطبعية التي لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات الكتاب، تفتقد الدراسة إلى مراعاة علامات الترقيم، مما يصعب الفهم على القارئ، ويبدو أن هناك قطيعة شبه تامة بين الدارس وعلامات الترقيم. والأقسى من هذا كله أن لغة الكاتب وصياغته تنمان عن أننا أمام شخص لا يجيد العربية كتابة. ولا أدري كيف أجاز المشرف ولجنة المناقشة الرسالة على شكلها الذي قرأته، فلا اللغة سليمة، ولا علامات الترقيم مراعاة، لا في المتن ولا في الهوامش، والأخطاء المطبعية أكثر من أن تحصى.

صباح الثلاثاء

2003/8/12